آثار ادبيّة

سبيل الصلاح ـ أُطرفنا بنسخةٍ من هذا الكتاب النفيس وهو مجموع الخُطَب التي ألقاها قدس الحبر الجليل العلاّمة المنطيق السيد جرمانس المعقَّد مطران اللاذقية في الكنيسة الكبرى بدمشق ايام الصيام الكبير من سنة ١٨٩٦ . وهي تسع عشرة خطبةً مطوَّلة في اغراضٍ مختلفة جمع فيها بين حاشيتي الدين والفلسفة واودعها من نفحاتهِ القدسية وعباراتهِ القسّيّة ما يُستروَح منهُ نسيم الجِنان ويملك أعنّة السمع والجَنان ومن قوة الحجج المنطقية واشعة البراهين العلمية ما تتلقاهُ الالباب بالاذعان وتستنير بهِ البصائر والاذهان الى زواجر تُرَدّ بمثلها الاهوآء عن الجماح ونصائح تُقتاد بها النفوس الى سبيل الصلاح فجزاهُ الله على هذا التأليف وغيرهِ خير ما جزى بهِ ذوي الاحسان ولا زلنا نتلقى من نوابغ علمهِ ما ينطق بحجتنا يوم تعشَى البصائر ويتلجلج اللسان

فاكهة النديم في تهانئ السليم ـ انتهت الينا نسخةٌ من كرّاسةٍ بهذا العنوان تشتمل على مجموع القصائد التي نُظمت لحضرة الوجيه الامثل سليم باشا الملحمة تهنئةً لهُ برتبة الوزارة السنية جمعها وطبعها حضرة الاديب جرجي افندي مرعي صاحب المكتبة اللبنانية في البترون . وقد تصفحنا بعضها على قدر ما وسعهُ وقتنا الضيّق وفسح لنا تراكم الاشغال فرأينا فيها من غرائب النظم ما استوقفنا وايم الله بين الحيرة والاسف لما تمثل لنا من

تخلف صناعة الادب في بلادنا السورية مع ما نعلم فيها من زيادة وسائل انتشار العلم وكثرة المدارس والدارسين وتمنينا ان لا يكون ذلك عن تراجعٍ في الفطرة وانتكاسٍ في استعداد السُلالة الشرقية التي طالما لمعت اشعة ذكآئها في العصور الغوابر . لا جرَم ان مثل هذا لما تنقبض لهُ صدور الآمال ويكفهرّ لهُ محيّا الاستقبال ومما يُسجل على الشرقيّ بتمام الانحطاط والاضمحلال لولا اننا لم نزل نشاهد من نجابة مواطنينا الاعزآء ونوابغ عقولهم حيثما انقلبوا وفي اي مأخذٍ شرعوا ما يؤيد ان شعلة ذلك الذكآء لم تبرح تتوقد في فِطَرهم الشفّافة وما استبنّا منهُ ان ما ظهر لنا من ذلك التخلّف لم يكن عن نقصٍ في الغرائز ولا فتورٍ في الذكآء وانما هو من نقص العلم وسوء التلقين وفقد المنبهين على العثرات والمسددين في طريق العمل مما سوّل للقاصر ان يتطاول الى ما يفوت يدهُ من الغايات واراهُ طريق الفضل سهلاً فوطئهُ وهو لا يدري ما امامهُ من المهاوي والعقبات فكثر المتطفلون على موائد العلم والمجترئون على مقامات الشعر والانشآء على حين لا وازع يَزَع ولا هادي يدعو فيُتّبع وما كان احوج البلاد الى مسيطرين على اقلام الشعرآء والكتّاب كما ان فيها مسيطرين على اقلام اصحاب الجرائد السياسية وصحف الاخبار لانهُ ان خيف من تلك ان تضرّ بالمصلحة الوطنية من الجهة السياسية فان هذه ولا جرَم تضرّ بها من الجهة الادبية بما تؤدّي اليهِ من فساد اللغة التي هي اعظم اركان الوطنية واهمّ روابط الجامعة الأُمّيّة

ومعلومٌ ان الشعر من اعلى طبقات الكلام وابعدها غايةً لما يقتضيهِ من شرف الالفاظ ونباهة المعاني وسلامة الذوق والمبالغة في التنقيح والتهذيب

فابتذالهُ على ألسنة غير اهلهِ مما يزري بهِ ويُفسِد رونقهُ ويُسقط مزيتهُ بل ربما افضى الى دفن كثيرٍ من جواهرهِ في صدور اربابهِ لانهُ اذا اصبح متداولاً بين ايدي العامّة وابتذلهُ من لا يحسنهُ أنِف المجيدون لهُ من انتحالهِ وتجافى كبرآء اهل القول عن نزول كنفهِ . وهذا ولا ريب احد اسباب عقم الشعر في هذه الايام وانصراف الرغبة عنهُ الى النثر الذي لا يجلّي في حلبتهِ الاكل من اعطتهُ البلاغة قيادها وملّكتهُ الفصاحة عنانها ولذلك ترى المتعرّضين للشعر اكثر من المتعرّضين للنثر حتى في الاعصر الاولى وايام كانت الفصاحة شائعةً بين طبقات المتأدبين على العموم

ولقد مرّ بنا كثيرٌ من ركيك الشعر وساقط القول ولا سيما في هذه السنين المتأخرة التي لم يبقَ فيها من عرف قاعدةً من قواعد الصرف او قرأ ديواناً من دواوين الشعرآء الا تصدّى للنظم وطيّر قصائدهُ في البلاد الا ان جلّ ما كنا ننكرهُ على اولئك الشعرآء خلوّ كلامهم من مبتكر المعاني وجليل الاغراض وبُعد الفاظهم عن مقام الجزالة العربية التي هي حلية الشعر ورونقهُ ولم نكن نتوهم ان نرى من الشعر ما يبلغ ان ينتظم في سلك اللغو ويُعدّ ضرباً من التخليط والهذيان مما لم نرَ لهُ مثيلاً الا في كلام بعض الجرائد عندنا مما سبقت لنا الاشارة اليهِ في غير هذا الموضع. لا جرَم ان هذا من فاحش التأخر بل هو نهاية السقوط والانحطاط ولولا ان تكون تلك القصائد مطبوعةً متداولةً بين ايدي المطالعين لما كنا نؤثر الا سترها على اربابها تفادياً من هذه المعرّة الشنعآء ونحن نروي لك امثلةً منها تكفي للدلالة على باقيها فمنها قول القائل في فاتحة تلك القصائد

تسابقَ درّ المادحين امامهُ وكلٌّ غدا فيما يقول مقصرا

ولم نسمع ان الدرّ يتسابق الا في هذا البيت . وقولهُ

لهم اوجهٌ منها الهشاشة اشرقت وعرفٌ بهِ الطرف القريح تنوّرا

وما نعلم كيف يتنور الطرف بالعرف ولا اي مشاركةٍ بين العين والانف . وقولهُ

ولما بدت انوارهُ وتلألأت فقلنا بهِ يا ما اجلّ وازهرا

وما عابهُ نقصٌ بُعيد تمامهِ كذاك اذا خسفٌ عراهُ تغيرا

وانظر ماذا تفهم من هذا البيت الاخير . ومنها قول الآخر

يميس ببردة النعمات تيهاً امينـاً باليمين وبالشمالِ

بظل ظلال من اولى البرايا بحورًا من مكارم كالرمالِ

وقولهُ

وحى اقواله كظبـاة عضبٍ تقدّ بحدّهـا صعب الوصالِ

يطـارح في مراميـهِ بعيداً وفي شوط المصاعب لا يخالي

وقول الآخر

جلت لنا برق رعدٍ خلبٍ فذرى قلبي بقرب الردى في سحب هجريها

رات تدلل ليلى عند قيس كما ارى تدلل قيسٍ في تصابيها

يدنو اليهـا قريح الجفن تجزلهُ ريقاً رحيق لمى برداً يوافيهـا

وقولهُ

حنت فنحت دواعي الزعر عن مهجٍ تخـال في وصلها صولاً يجافيهـا

جماعة الجهم والالطـاف في خلقٍ صدًّا ووصـلاً صلا نارًا بعاديهـا

وقول الآخر

الى اهلها تصبو العلى والمراتبُ واقدارها عن كل قدرٍ دلائلُ
فلا تحسبنّ المجد سهلاً منالهُ فدونهُ بيدٌ خلّ فيها الحلاحلُ

وقول الآخر

لو اسطاع ثغر الشرق زم رحالهُ اليك ليحيي بالمثول ضلوعا
فوالله لم يمنعهُ عن ذاك شاغلٌ سوى شططٍ ابقى الفؤاد مروعا

وقول الآخر

اعزّ واحمى في الشدائد والرخا وان كان اقدامٌ فما فوقهُ الاجرى
يهيء لدى الجلى وقد زعر الورى فيجلو دياجيها وقد رغم الدهرا

وقس على ذلك سائر ما هناك مما نحسب المطالع اكتفى منهُ بهذا القدر.

ولا نزيد اولي الذوق علماً بان مثل هذا الشعر حريّ بان يزري بقدر الممدوح لما فيهِ من امتهان ذكرهِ وتعريضهِ للسخرية والاستهزآء وقد جآء في بعض كتب الادب ان احمد بن اسمعيل بن الخصيب دخل يوماً على سليمان بن وهب يعزيهِ عن والدتهِ فقال لهُ يا اعزّك الله بي مصائب انثالت عليّ من كل جانب فقال ما هي اطال الله بقآءك قال ماتت امي وغُير اسمي ورُثي ميتي بهذا الشعر ورمى اليهِ رقعةً فيها مكتوب

لأُمّ سليمانٍ علينا مصيبةٌ مجللةٌ مثل الحسام البواترِ
وكنتِ سراج البيت يا ام سالمٍ فاضحى سراج البيت بين المقابرِ

قال فاشتغل بالضحك عن البكآء وبالتسلي عن العزآء. انتهى. فقد رأيت انهُ عدّ رثآء امهِ بهذا الشعر مصيبةً اخرى فوق مصيبتهِ فيها لِما عرّض

ذكرها للضحك والاستخفاف في مقام الحزن والخشوع. وانت تدري ان المقصود بالمدح والرثآء وسائر الاغراض الشعرية تصوير المعنى باظهر الوانهِ واشدها تأثيرًا في النفس والمبالغة في الوصف الى آخر حدٍّ ممكن على ما هو المعروف من مذهب الشعرآء فاذا برز ذلك المدح في صورةٍ مضحكة وقالبٍ مستهجَن غلب ما فيهِ من الهُجنة على محاسن اوصاف الممدوح وانصرفت النفس عن الاشتغال بتصوُّر فضائلهِ والاعجاب بمناقبهِ الى اللهو بما ورد في كلام الشاعر من المضحكات فتوارى ذكر الممدوح ورآء هذا الستار الممتهَن

واسوأ مما ذُكر وابعد مذهباً في الفهاهة انك ترى منهم من يعمد الى البيت المشهور من ابيات الذم او الرثآء فيُدخِل بعض الفاظهِ في قصيدتهِ او يُفرغ في قالبهِ بيتاً من المدح فاول ما يقرأهُ المطالع او يسمعهُ السامع يذكر ذلك البيت فيكون كالتعريض بالممدوح وذلك كقول القائل في اهداء هذه المجموعة يخاطب الممدوح

فغضّ طرفك ان العجز يخجلها لعزّةٍ انت بدرٌ في معاليها

فان اول ما يقرع الخاطر من هذا البيت قول جرير في هجآء الراعي وهو من الشواهد المشهورة في كتب النحو

فغضّ الطرف انك من نميرٍ فلا كعباً بلغت ولا كلابا

وكقول الآخر

فلو قيل من نال العلى بلياقةٍ اشارت اليهِ بالتواري الانامل

فانهُ سلخ البيت المشهور وهو من شواهد النحو ايضاً

اذا قيل ايّ الناس شرّ قبيلةٍ اشارت كليبٍ بالاكفّ الاصابعُ

غير انهُ بدّل الاصابع بالانامل والاكف بالتواري والله والناظم اعلم بما اراد بهذه اللفظة . ومثلهُ قول الآخر

اذا قيل ايّ الناس واحد عصرهِ تمدّ اليهِ الخلق انملها العشرا

فانهُ لا يعدو البيت نفسهُ الا انهُ جعل الاشارة اليهِ بالانامل العشر اي بالراحتين جميعاً مفتوحتي الاصابع ..... ومن ذلك قول صاحب هذه القصيدة وهو بيت المطلع

افيقا لسان الحال قد نظم الدرّا وصوت الهنا اهدى الى البشر البشرى

وانظر ما محل قولهِ افيقا من هذا البيت وانما هو من قول المتنبي

افيقا خمار الهمّ بغّضني الخمرا وسكري من الايام جنّبني السكرا

والفرق بين الموضعين ظاهر . ومن هذا القبيل قول الآخر

ركبتَ مطيّة الاخلاص بدءًا فرُقّيتم الى خير المآلِ

وانما هو من قول ابي الحسن الانباري في رثآء ابن بقية وقد مات مصلوباً

ركبتَ مطيةً من قبلُ زيدٌ علاها في السنين الماضياتِ

واما ما هناك من اغلاط اللغة والنحو والوزن والتقفية فامرٌ يطول الكلام عليهِ وليس من قصدنا في هذا الموضع وقد امتدّ بنا نفس الكلام الى ما لا يحتملهُ حال هذه القصائد ولا تتسع صفحات هذه المجلة للمزيد عليهِ . والله يعلم ان ليس من غرضنا فيما اوردناهُ تثبيط اقلام اولئك الادبآء وامثالهم عن الجري في هذا المضمار فانهُ ليسرّنا ان نرى في قومنا من يهتمّ بالادب واللغة ويشتغل بالشعر والانشآء وهو ولا شك مما تفخر بهِ البلاد ويحيا

بهِ تمدّن الأُمّة ولكن لا اقلّ من ان يكون ما يأتون بهِ صحيح التركيب مفهوم المعنى ولا نطالبهم بالفائق ولا الجيّد والا فقد كانت الأُميّة اجمل واستر . وانما الذي نتوخاهُ هنا تنبيههم الى التثبُّت فيما يكتبون وان لا يعجلوا الى نشر ما يبدر من قرائحهم قبل تنقيحهِ وعرضهِ على من يقيم من اوَدهِ او ينبه الى ما فيهِ من خطإٍ او لحن والا فلا اقلّ من ان يطلع الواحد منهم صاحبهُ على ما يجود بهِ خاطرهُ فان للمرء في شعر غيرهِ نظرة غير نظرتهِ في شعر نفسهِ وان لم يكن هذا ولا ذاك فليطوِ ما ينظمهُ عن نفسهِ اياماً حتى يتناساهُ ثم يعاودهُ فانهُ حينئذٍ يكون نظرهُ فيهِ كنظر الاجنبي ويتنبه فيهِ لاشيآء لم يتنبه لها حال النظم . ونمسك عنان القلم على هذا القدر تفادياً من الملل والله المسؤول ان يسددنا جميعاً بهديهِ وهو حسبنا

لله في خلقهِ آيات

نقصُّ على قرآئنا الكرام نادرةً مبتكرةً اتفقت لنا في هذه الايام وهي ان رجلاً — او غير رجلٍ ... ولكنهُ فياسوفٌ في جنسهِ — أُرسل اليهِ الضيآء في جملة من أُرسل اليهم من المشتركين فلما بلغهُ الجزء الاول ردهُ ولكن على صورةٍ غريبة لم نعلم معها كيف نجاريهِ على هذا الردّ فانهُ جرّد الجزء من اللفافة المكتوب عليها اسمهُ وغلفهُ بلفافةٍ اخرى وكتب عليها اسمنا وسلمهُ الى البريد فلما صدر الجزء الثاني أُرسل اليهِ بالضرورة لاننا لم نتنبأ عن اسمهِ حتى نمحوهُ من بين اسمآء المشتركين ففعل بهِ كما فعل بالاول ثم وصل اليهِ الثالث ففعل بهِ كذلك والى الآن لم يفهم ان الضيآء لا يمكن ان يُقطع عنهُ ما دام اسمهُ مجهولاً عندنا ونحن نعلم انهُ مظلومٌ بارسال الضيآء اليهِ والضيآء مظلومٌ بان يُرسل الى مثلهِ ولكن من لنا بان نعرف اسمهُ حتى نعفيهُ من الضيآء ونعفي انفسنا من هذا العنآء